التعامل مع الابتلاء بالعشق في السنة النبوية

كتبه عبدالعزيز بن سعد الدغثير في ٦/١٢/١٤٤٦هـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده أما بعد:

فمع التغير المجتمعي، وتقارب الشباب والفتيات في العمل، ودخول وسائل التواصل في كل بيت، وإمكانية التواصل بين الشباب والفتيات عبرها، والبنوث التي تتم عبر تلك الوسائل، تولدت علل لم تكن بالشيع السابق في المجتمعات المحافظة، وخصوصاً مع تعذر الزواج عند الكثير منهم بسبب ندرة الفرص الوظيفية، وارتفاع الأسعار عن قدرة الكثير من الشباب.

ومن تلك الأدواء التي صرنا نسمع الأسئلة عنها داء العشق، وهو إن تمكن منع من النوم والراحة وأداء الأعمال، وقد وصف الشاعر الأموي نصيب بن رباح حال العاشق بقوله:

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُجِبٍ *** وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حَلْوَ الْمَذَاقِ

تَرَاهُ بِأَكْبَرِ أَبْدَانٍ حَزِينًا *** مَخَافَةَ فَرْقِهِ أَوْ لِأَشْتِيَاقِ

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوَّا شَوْقًا إِلَيْهِمْ *** وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفُرَاقِ

فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّنَائِي *** وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ

وقد عرف ابن القيم رحمه الله العشق بأنه: "الإفراط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيُّله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه. فعند ذلك: تشتغل النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسانية، فتتعطل تلك القوى، فيحدث بتعطُّلها من الآفات، على البدن والروح: ما يعزُّ دواؤه، أو يتعدَّر، فتتغيَّر أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فيعجز البشر عن صلاحه " "الجواب الكافي" (٤٩٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "مجموع الفتاوى" (١٠/١٢٩): "والعشق مرض نفساني، وإذا قوي أثر في البدن، فصار مرضاً في الجسم: إما من أمراض الدماغ، ولهذا قيل فيه هو مرض وسواسي، وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك".

والعشق معدود ضمن الأمراض، قال ابن القيم رحمه الله: "هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم: عز على الأطباء دواؤه وأعيى العليل دأؤه..." "زاد المعاد" (٤/٢٦٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "مجموع الفتاوى" (١٠/١٣٢): "عشق الأجنبية: فيه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها، ثم قد تفسد عقله، ثم جسمه".

ولا شك أن العشق إذا سيطر على الرجل أو المرأة فإنه يشغل ذهنه، وتسود الدنيا في عينه إذا لم يتزوج الطرف الآخر، وقد روى الخرائطي في "اعتلال القلوب" (٢/٣٧٣)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٧/٢٢)، وابن الجوزي في "ذم الهوى" (ص ٤٩٤) عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: "إِنَّا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، إِذْ أَقْبَلَ فِتْيَةً أَدْمَانَ، يَحْمِلُونَ فَتَى أَدْمَانَ مِنْ بَنِي عُدْرَةَ، قَدْ بَلَى بَدَنُهُ وَكَانَتْ لَهُ حَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ، حَتَّى وَقَفُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: اسْتَشْفِ لِهَذَا يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: "وَمَا بِهِ؟"

قَالَ: فَتَرْتَمِ الْفَتَى بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ حَتَّى لَا يُبَيِّنَ وَهُوَ يَقُولُ:

بِنَا مِنْ جَوَى الْأَحْزَانِ وَالْحُبِّ لَوْعَةً... تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الشَّفِيقِ تَدُوبُ

وَلَكِنَّمَا أَبْقَى حُشَاشَةَ مُعُولٍ... عَلَى مَا بِهِ عُوْدُ هُنَاكَ صَلِيبُ

وَمَا عَجَبُ مَوْتِ الْمُجِيبِينَ فِي الْهَوَى... وَلَكِنْ بَقَاءُ الْعَاشِقِينَ عَجِيبُ

ثُمَّ شَهَقَ شَهَقَةً فَمَاتَ !

قَالَ عِكْرِمَةُ: فَمَا زَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِقِيَّةٍ يَوْمِهِ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحُبِّ .

ووقد ذكره ابن القيم مختصرا في "الجواب الكافي" (٤٩٧).

وقد يكون العشق بسبب غير محرم، كمن عشق امرأة يعرفها من الصغر، أو رآها بدون قصد، أو كانت زوجة سابقة بانته منه، يقول ابن تيمية رحمه الله "مجموع الفتاوى" (١٠/١١): "فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه".

ويقول ابن القيم رحمه الله "روضة المحبين" (١٤٧): "إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يُلْمَ عليه صاحبه، كمن كان يعشق امرأته أو جاريتها ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارق له، فهذا لا يلام على ذلك، وكذلك إذا نظر نظرة فجاءة ثم صرف بصره وقد تمكن العشق من قلبه بغير اختياره، على أن عليه مدافعتة وصرفه"

ودليل عدم المؤاخذة بمثل هذا العشق قوله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأما محبة النِّسْوَانِ فلا لوم على المحبِّ فيها، بل هي من كماله".
الداء والدواء (الجواب الكافي) " (ص ٥٥٢).

وإذا تعلق قلب رجل بامرأة يحل له نكاحها أو العكس فالزواج هو الحل الأقرب والأُنفع، لقول النبي صلى الله عليه وسلم "لم نرَ للمتحيِّينَ مثل النكاح" رواه ابن ماجه (١٨٤٧) وصححه البوصيري والشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٦٢٤).

قال السندي – كما في هامش "سنن ابن ماجه" :-

قوله "لم نر للمتحيبين مثل النكاح" لفظ "متحيبين": يحتمل التثنية والجمع، والمعنى: أنه إذا كان بين اثنين محبة فتلك المحبة لا يزيد لها شيء من أنواع التعلقات بالتقربات ولا يديمها مثل تعلق النكاح، فلو كان بينهما نكاح مع تلك المحبة: لكانت المحبة كل يوم بالازدياد والقوة..

والشفاعة في تزويج العاشق بمن يحب مشروعة، لحديث بريرة ومغيث، فقد صح عن ابن عباس: " أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبَّاسٍ: (يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا)،! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَوْ رَاجَعْتِهِ)، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ: (إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ، قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ) ". صحيح البخاري (٥٢٨٣).

وتوضيح سبب ذلك أن بريرة كانت أمة، ثم عتقت، فاختارت الانفصال عن زوجها السابق لكونه عبداً، وهي صارت حرة، فطار قلبه لهفاً إليها وحرزنا على فراقها له، ولم تقبل بريرة رضي الله عنها شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه الحال يلزم العاشق الصبر، وليبشر بالأجر. فإذا عجز العاشق عن الزواج، فعليه في هذه الحالة باللجوء إلى الله تعالى لكي يفرج همّه، وعليه بالصبر، وليتنبّه إلى أن هذا ابتلاء واختبار من الله تعالى، فإن صبر فله أجر عظيم.

قال ابن القيم رحمه الله: فصل: في هديه صلى الله عليه وسلم في علاج العشق

(هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعيى العليل دواؤه..)

ثم قال: (وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه؛ فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور؛ ولهذا قال تعالى في حق يوسف: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) يوسف/٢٤، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته؛ فصرف المسبب لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ..) زاد المعاد (٤/٢٦٥، ٢٦٨).

والعشق مثل شرب المسكر، قال ابن القيم رحمه الله: " مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلية تحت التكليف، فإن النظر والتفكير والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب، كان ترتب

المسبب عليها بغير اختياره...وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر، فإن تناول المسكر اختياري، وما يتولد عنه من السكر اضطراري، فمتى كان السبب واقعا باختياره، لم يكن معذورا فيما تولد عنه بغير اختياره، فمتى كان السبب محظورا، لم يكن السكران معذورا. ولا ريب أن متابعة النظر، واستدامة الفكر، بمنزلة شرب المسكر، فهو يلام على السبب "انتهى من " روضة المحبين " (ص ٢٢٥).

والحل الابتعاد عن إطلاق البصر، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّيْنَةِ أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَرَزْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرَ وَزَيْنَا اللِّسَانَ النُّطْقُ وَالنَّفْسُ تَمَتَّى وَتَشْتَبِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ) رواه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧)، والحل في غض البصر، قال تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) النور / ٣٠-٣١.

وأقوى علاج للعشق الصبر والاستعفاف ومحاولة النسيان: قال صلى الله عليه وسلم: (.. وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْنِ يُعْنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ) رواه البخاري (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣).

فإذا صبر وتصبر، فهو مأجور، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "مجموع الفتاوى" (١٣٣/١٠): "فأما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر، فإنه يثاب على تقواه لله، فمن المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظرا وقولا وعملا، وكتم ذلك فلم يتكلم به، حتى لا يكون في ذلك كلام محرم، إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق، وصبر على طاعة الله وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة، فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

والحمد لله أولا وآخرا.